

الفصل الثاني

بَيْنَ الْوَحْيِ وَالْعَقْلِ « مَصَادِرُ الْمَعْرِفَةِ »

غلط البعض اذ قدموا العقل على الوحي ، والعقل من غير وحي يضل ويشقى ، وغلط البعض اذ اقتصروا على الوحي والغوا دور العقل . . . ونسوا أنه مناط التكليف ، وبه — في دائرة الوحي — الاجتهاد والاستنباط ((لعلمه الذين يستنبطونه منهم))(*) وبالعقل يكون الاتباع الرشيد للوحي المجيد « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » (١) ! ذلك موضوع هذا الفصل !

* * *

● الوحي :

الوحي نور : ما أحس الناس بعد حلاوة الوحي ، ولا قدروه حق قدره !

والوحي نور من نور . . .

(١) ظه : ١٢٣ .

(*) النساء : ٨٢ .

« وكفلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب
ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك
لنهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات
وما فى الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور » (٦) .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع
رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه
ويهديهم الى صراط مستقيم » (٦) .

« الر ، كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور
باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . الله الذى له ما فى السموات
وما فى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد » (٤) .

ومن قبل القرآن كان الانجيل .. « فهو هدى ونور » .

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من
التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من
التوراة وهدى وهوعظة للمؤمنين » (٥) .

ومن قبل الانجيل كانت التوراة كذلك « فيها هدى ونور » .

« انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين

اسلموا الذين هادوا والربانيون والأخبار » (٥) .

(٢) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ . (٣) المائدة : ١٥ ، ١٦ .

(٤) ابراهيم : ١ ، ٢ . (٥) المائدة : ٤٦ .

(*) المائدة : ٤٤ .

بيد أنه إذا قيد النور في الانجيل والتوراة فقد أطلق في القرآن
 ولا غرو فقد جاء : «مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه» .
 « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب
 ومهيئنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم
 عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله
 لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ،
 الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » (١) .
 والوحي نور . . من نور « الله نور السموات والأرض . . » (٧)
 « نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء . . . » (٧) .

* * *

● الوحي حق :

« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل . . » (٨) .
 « الحق من ربك فلا تكن من الممترين » (٩) .
 « يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم
 تعلمون » (١٠) .
 « وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ،
 ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق
 بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون » (١١) .

- | | |
|-------------------------|----------------------|
| (٧) النور : ٣٥ . | (٦) المائدة : ٤٨ . |
| (٩) آل عمران : ٦٠ . | (٨) الاسراء : ١٠٥ . |
| (١١) البقرة : ٤١ ، ٤٢ . | (١٠) آل عمران : ٧١ . |

« انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ،

ولا تكن للخاتنين خصيما » (١٣) .

« ويستتبثونك أحق هو ، قل أى وربى انه لحق ، وما انتم

بممجزين » (١٣) .

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين . قال

موسى اتقواون للحق لما جاءكم، اسحر هذا ولا يضح الساحرون»(١٤) .

« فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون

الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من

المتريين » (١٥) .

« قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى

فاتما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما انا عليكم

بوكيل . واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير

الحاكمين » (١٦) .

« كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاء ،

واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال»(١٧) .

« افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى ،

انما يتذكر اولوا الالباب » (١٨) .

• (١٣) يونس : ٥٣ .

• (١٢) النساء : ١٠٥ .

• (١٥) يونس : ٩٤ .

• (١٤) يونس : ٧٦ ، ٧٧ .

• (١٧) الرعد : ١٧ .

• (١٦) يونس : ١٠٨ ، ١٠٩ .

• (١٨) الرعد : ١٩ .

« وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » (١٩) .

« فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين » (٢٠) .

« وإذا ينطى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » (٢١) .

« قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » (٢٢) .

وكما خلق السموات والأرض بالحق ، فقد أنزل الكتاب بالحق :
« خلق السموات والأرض بالحق ، تطلى عما يشركون » (٢٣) .
« خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى ، ألا هو العزيز الففار » (٢٤) .

والذى خلق هذه بالحق ، وأنزل ذلك بالحق .. هو الله الحق :
« ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير » (٢٥) .

-
- (١٩) النحل : ١٠١ ، ١٠٢ . (٢٠) النمل : ٧٩ .
(٢١) القصص : ٥٣ . (٢٢) سبأ : ٤٨ ، ٤٩ .
(٢٣) النحل : ٣ . (٢٤) الزمر : ٥ .
(٢٥) الحج : ٦٢ .

وكما أن ما يدعون من دونه هو الباطل ، فإنه ليس بعد القرآن
الذى هو حق الا الضلال ((فماذا بعد الحق الا الضلال)) (٢٦) .

● والوهى هدى ورحمة وشفاء :

((يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في
الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك
نليفرحوا هو خير مما يجمعون)) (٢٧) .
((وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)) (٢٨) .
((أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، أن في ذلك
لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)) (٢٩) .
((ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضل الله فما له
من هاد)) (٣٠) .

((ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين)) (٣١) .

● ماذا بعد النور والحق ، والهدى والرحمة والشفاء ؟

ليس بعد النور الا الظلام .
وليس بعد الحق الا الباطل .

(٢٧) يونس : ٥٧ ، ٥٨ .

(٢٩) العنكبوت : ٥١ .

(٣١) البقرة : ٢ .

(٢٦) يونس : ٣٢ .

(٢٨) الاسراء : ٨٢ .

(٣٠) الزمر : ٢٣ .

وليس بعد الهدى الا الضلال .
وليس بعد الرحمة الا الشقاء .
وليس بعد الشفاء الا مرض وسقم وداء !
فمن ذا الذى يرفض النور ويرضى بالظلام ؟
من ذا الذى يرفض الحق ويرضى بالباطل ؟
من ذا الذى يرفض الهدى ويحب الضلال ؟
من ذا الذى يرفض الرحمة ويرضى بالشقاء ؟
من ذا الذى يرفض الشفاء ويرضى بالعلّة والسقم والداء ؟ !
« أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم
ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون » ؟؟ (٣٢) .

* * *

● الوحي هو الكتاب والسنة :

الكتاب وحى ... ذلك مالا يحتاج الى دليل ، وقد تقدم من
الآيات ما فيه الكفاية .
والسنة وحى . . . ذلك نص القرآن : « وما ينطق عن
الهُوى + ان هو الا وحى يوحى » (٣٢) .

وهى كذلك لانها وان كانت لفظا من عند الرسول ﷺ فهى
معنى من عند الله . . . وسوف نزيد ذلك تفصيلا عند الحديث عن
السنة .

(٣٣) النجم : ٣ ، ٤ .

(٣٢) النور : ٥٠ .

وسوف نشير الى بعض « قواعد » حول الوحي .. كتابه
وسنة .. والله المستعان .

* * *

أولا - قواعد حول الكتاب :

١ - « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » :

في فقه المجتمع او المجتمعات لا يتقدم الصغير على الكبير ،
ولا الخفير على الأمير ... وفي فقه السنة « كبر ثم يمن » اي ابدأ
بالكبير ثم على من يمينه .
وفيه كذلك « ليس منا من لم يوقر كبيرا ولم يعطف على
صغير » .

اذا كان ذلك كذلك .. فكيف ساخ تقدم المخلوق على الخالق .. ؟
من أجل ذلك كان الأمر صريحا واضحا خطابا للمؤمنين بالله
واليوم الآخر « يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله
ورسوله » (٣٤) . وربط ذلك بالتقوى « واتقوا الله » (٣٤) ثم اشارة
المراقبة « ان الله سميع عليم » (٣٤)

وبعده التأكيد :

**« يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي
ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم
لا تشعرون » (٣٥) .**

والناس في مجتمعات الفطرة لا يزالون لا يسيغون أن يرفع

٢ : (٣٥) الحجرات :

١ : (٣٤) الحجرات :

صغير صوته على كبير .. لا ماديا ولا معنويا ... أما ماديا فمعروف ،
وأما معنويا فهو أن يمضى الصغير رأيه على الكبير ...

وإذا لم يكن ذلك سائفا مع الكبير من البشر ، فهلا يجوز
ذلك مع المعصوم من البشر « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى
يوحى » (٣٦) .

وإذا لم يكن ذلك سائفا مع البشر أيا كان البشر ، فهل
يسوغ مع رب البشر وخالق البشر ؟
من هنا كان ذلك الاصل الهام . . القرآن يتقدم ولا يتقدم عليه
وتلك كانت بعض مبرراته .

أما ما بقى من مبرراته الشرعية :

(ا) فهو أنه تقضى الورد عن الله سبحانه وتعالى ، فقد
وصل اليها متواترا يدحض كل تشكيك في صدوره عن رب العالمين !

(ب) وأن الله قد أنبأنا بحفظه ، فبينما ترك الكتب السابقة في
حفظها لأصحابها « بها استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه
شهداء » (٢٧) فقد تكفل بحفظ كتابه الأخير وجمله عهدا على نفسه
سبحانه وتعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٣٨) .
(ج) وأن فيه خير الدين والدنيا والآخرة :

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى

للمسلمين » (٣٩) .

• (٣٧) المائدة : ٤٤

• (٣٩) النحل : ٨٩

• (٣٦) النجم : ٣ ، ٤

• (٣٨) الحجر : ٩

٢ - « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك » .
كتاب الله لا يقبل التجزئة : « وتؤمنون بالكتاب كله » (٤٠) ،
« ويكون الدين كله لله ... » (٤١) .

وتجزئته فتنة ، وجاهلية ، وكفر ، ومحاربة الله ورسوله .
أما الفتنة فقولته تعالى : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض
ما أنزل الله اليك » (٤٢) .

وأما الجاهلية فقولته تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون » (٤٣)
وذلك تعقيبا على آية التبعية .

ويعقبها سبحانه « ومن أحسن من الله حكما لقوم
يوقنون » (٤٤) .

وأما الكفر فقولته تعالى : « أفتمؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون
ببعض » (٤٥) .

وأما المحاربة فقولته تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله
وذروا ما بقى من الربا أن كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب
من الله ورسوله » (٤٦) ...

وفي المعنى حديث رسول الله ﷺ : « من حالت شفاعته دون حد
من حدود الله فقد ضاد الله في حكمه » (٤٧) ، ويقول فيه ابن تيمية :

-
- | | |
|---------------------|---------------------------|
| (٤١) الأنفال : ٣٩ . | (٤٠) آل عمران : ١١٩ . |
| (٤٣) المائدة : ٥٠ . | (٤٢) المائدة : ٤٩ . |
| (٤٥) البقرة : ٨٥ . | (٤٤) المائدة : ٥٠ . |
| (٤٧) رواه الترمذى . | (٤٦) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩ . |

« هذا فيمن حالت شفاعته دون حد من حدود الله ، فكيف بمن منع الحدود بقدرته ويده » ؟ !

وأما جزاء ذلك فقد جاء في آية التجزئة الأولى « **فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم** » (٤٨) .

كما جاء في آية التجزئة الثانية « **فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب** » (٤٩) .

وقد فصلت الثانية ما أجملت الأولى ، فلئن أشارت الأولى الى أن من يقع في ذلك «**فان تولوا**» فان الله يصيبه ببعض ذنوبهم . فان الثانية فصلت تلك المصيبة . . فاذا بها مصيبتان : خزي في الدنيا . . وأشد العذاب في الآخرة !

وعدم التجزئة فضلا عن أنه امر شرعى فهو كذلك فطرى . فالشفاء المتكامل لا يترتب عليه أثره اذا جزىء واختار المريض بعض الدواء دون البعض الآخر ، بل ان استخدام بعض الدواء دون البعض — رغم وصف الطبيب المتكامل — فقد يؤدي الى تفاقم الداء فضلا عن عدم الشفاء !

والبناء المتكامل يشد بعضه بعضا . فان أصيب في بعض اجزائه ، أو هدمت بعض اجزائه ، فان ذلك يؤدي به الى التصدع أو ينقص من القواعد .

(٤٩) البقرة : ٨٥ .

(٤٨) المائدة : ٤٩ .

٢ - القرآن هو التوجيه والتشريع :

للتخصص فائدته من حيث اتقان مجال التخصص ، لكنه قد يعطى ظلالة من التفرقة وعدم الترابط بين الأجزاء المختلفة .

واهتمام العلماء بجانب « التشريع » أو « الاحكام » في كتاب الله ، قد ألقى في روع البعض - عن شعور أو بغير شعور - جعل جانب التوجيه في مكان دون جانب « التشريع » .

والحق أن الكل من عند الله ، وأن التوجيه والتشريع يتكاملان لاعطاء الصورة المتكاملة لشرع الله فإذا به يجمع بين الواقع والمثال ، فالأول يأمر بما يعالجه ، والثاني يندب بما يرتفع اليه ومثال ذلك :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٥٠) (تشريع - أو حكم)

« فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (٥١) (توجيه)

« وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة

فإنصن ما فرضتم » (٥٢) (تشريع) .

« إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » (٥٢) (توجيه) .

« وأن تعفوا أقرب للتقوى » (٥٤) (توجيه)

« ولا تنسوا الفضل بينكم » . . (٥٥) (توجيه)

٤٠ : (٥١) الشورى :

٢٣٧ : (٥٣) البقرة :

٢٣٧ : (٥٥) البقرة :

٤٠ : (٥٠) الشورى :

٢٣٧ : (٥٢) البقرة :

٢٣٧ : (٥٤) البقرة :

وقد شمل القصص القرآن — ومساحته في القرآن كبيرة
— الكثير من التوجيه فضلا عن التشريع (٥٦) .

* * *

ثانياً — قواعد حول السنة :

|| — السنة شقيقة القرآن :

لأن الله سماها وحيا كما سمي القرآن وحيا « وما ينطق عن
الهُوى . ان هو الا وحى يوحى » (٥٧)

(وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب
ولا الايمان . . .) (٥٨)

ولأن الله أمر بطاعة الرسول استقلالاً كما أمر بطاعته
استقلالاً .

ولأن الرسول ﷺ جعلها مثل القرآن « إلا انى أوتيت القرآن
ومثله معه » .

ولأن العمل بالقرآن لا يتأتى بغير العمل بها . . . لأنها اما
مفصلة لما اجمل . . او مقيدة لما اطلق . . او مخصصة لما عمم . . .

(٥٦) ضربنا مثلاً لذلك في سورة يوسف فعددنا كم فيها من
الدروس التى تنضوى تحت التوجيه والتشريع فليرجع اليها من أراد
(راجع القرآن فوق الدستور ، للمؤلف — تحت عنوان : دروس
من سورة يوسف) .

(٥٨) الشورى : ٥٢

(٥٧) النجم : ٣ ، ٤ .

أو أنت بحكم زائد يمكن رده عند البعض الى القرآن (مالك وأحمد وغيرهما) أو اعتباره زائدا يدل على اختصاص رسول الله ﷺ بهذا الخير (الشافعى) .

٢ - كفر من جحد السنة أو أنكر العمل بها :

من جحد السنة أو أنكرها كمن جحد القرآن أو أنكره . . .
كافر كفرا بواحا .

لكن الاختلاف حول حجية حديث أو نوع من الحديث (كالأحاد في مجال العقيدة) أمر آخر ، وقد حدث مثل هذا الاختلاف على عهد السلف فما طعن فيهم أحدا ولا طعن بعضهم في بعض !

٣ - السنة هي القول والفعل والإقرار :

كل بالدرجة التي تحدث بها العلماء .

والجمع بين طريقتين (قول وفعل أو فعل وإقرار . . .) والجمع بين قولين في معنى واحد يقوى بعضه بعضا ، فان زاد أدى الى تواتر معنوى يوثق الخبر أو الحديث (٥٩) .

٤ - والآحاد معمول به حتى في مجال العقيدة :

فقد جاء اتفاق الأئمة على العمل بالآحاد في غير العقيدة .
وفي مجال العقيدة قال بذلك جم غفير من علماء الحديث ومن سائر العلماء .

(٥٩) راجع الموافقات للامام الشاطبى .

واشترط راويين ، أو اشترط القسم من راوي الحديث يعنى التأكيد ولا يخرج عن كونه آحاد .

٥ - وفعل الرسول ﷺ قاضيا واماما :

يعمل به في مجال انزال الحكم على الوقائع ، وليس في مجال الوقائع أو تكييف تلك الوقائع .

فمثلا : قضاء الرسول بالرجم بالنسبة للمحصن ، معمول به كجزء من السنة ، لأنه تضمن حكما شرعيا .

أما ماهي الوقائع ، وأما تكييف هذه الوقائع .. أهي زنا أم غير زنا.. فهذا جهد بشري يختلف عن الجزء (القانوني) أو الشرعي كما أسلفنا ، وقد غلط في هذا البعض فاستبعد الجميع (١٠) .

ثالثا - قواعد مشتركة بين الكتاب والسنة :

١ - حول الثبوت :

القرآن قطعي الثبوت : على ذلك اجماع المسلمين من لدن رسول الله ﷺ وحتى اليوم .

ذلك أن أمين الأرض بلغه عن أمين السماء عن الله عز وجل ، ثم تواتر جيلا عن جيل ، في الصدور وفي السطور ، وتحقق له الأمر القدرى والأمر الشرعى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » (١١) .

(١٠) راجع الحكم في الاسلام - د. عبد الحميد متولى .

(١١) الحجر : ٩ .

أما السنة : ففيها ثلاث مراتب :
اثنان متفق عليهما بين الجمهور والأحناف ، والثالثة تفرد
بها الأحناف .

أما المرتبة الأولى فهي « المتواتر » — وهو قطعى الثبوت .
وهى التى روتها جماعة يؤمن تواطؤها على الكذب ، عن
جماعة أخرى ، حتى تتصل الحلقات برسول الله ﷺ وهى قليلة فى
الحديث ، وفى الفعل ، وفى الإقرار .

أما المرتبة الثانية : فهي « الآحاد » — وهى ظنية الثبوت .
وهو ما ليس بمتواتر سواء رواه واحد أو أكثر ما دام لم يصل
الرواة الى حد الجماعة .

واختلف حول الجماعة ، وقيل : أقلها ثلاثة وهو الراجح .
وقال البعض — وهو مرجوح — الاثنان لامكان التعبير عنهما
بصفة الجماعة .

أما المرتبة الثالثة : فهي « المشهور » وهى تقع بين الأولى
والثانية ، ومن ثم فهي فوق الظنية ودون القطعية .
وقد قال بها الأحناف ، ويقصدون الحديث المتواتر حتى
الحلقة الأولى فيكون آحادا .

ورغم اختلاف درجة الثبوت ، فالعمل بالجميع متفق عليه —
كما المحض — من قبل .

وانما تنفيذ درجة الثبوت عند التعارض أو الترجيح .

٢ - حول الدلالة :

كلا القرآن والسنة يرد عليهما الدالتان : الدلالة القطعية ،
والدلالة الظنية .

وذلك تبعا لصياغة النص القرآني أو النبوي .

فقول الله « واقموا الصلاة » (٦٣) وقوله : « الزانية والزاني
فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » (٦٣) وقوله : « للذكر مثل حظ
الانثيين » (٦٤) .. كلها قطعية الدلالة .

وقول الرسول ﷺ : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها »
كذلك ..

وقول الله : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » (٦٥) ،
وقوله « او يعفوا الذي بيده عقدة النكاح » (٦٦)

وقول الرسول ﷺ « في المال حق سوى الزكاة » .. هذه
نصوص ظنية ..

٣ - مصادر أو أدلة تابعة أو ملحقة :

الرحى - قرآنا وسنة - هو المصدر ، والعقل تبع .

لكن الله سبحانه - في وحيه - أذن لنا في مصادر أو أدلة أخرى
أما تابعة للوحي أو ملحقة به ، فالإجماع .. والقياس .. والمصلحة ..

-
- | | |
|-----------------------|-----------------------|
| • (٦٣) النور : ٢ . | • (٦٢) البقرة : ٤٣ . |
| • (٦٥) البقرة : ٢٢٨ . | • (٦٤) النساء : ١١ . |
| | • (٦٦) البقرة : ٢٣٧ . |

والاستحسان : مصادر تابعة للوحى ، اذ تستند الى نص فيه
أو معنى ، ويتم البناء على ذلك النص أو المعنى (٦٧) .

ورأى الصحابى .. و شرع من قبلنا .. والعرف : مصادر
ملحقة .. لأنها فى الواقع تلتحق بالوحى بطريق من الطرق التى
بيناهما فى غير هذا المكان (٦٨) .

من هذا الذى قدمنا ، نجد أن الوحى مصدر المعرفة الأول ،
وهو المصدر الصحيح ، وهو المصدر الوحيد فيما يتعلق بمعرفة الله ،
ومعرفة اليوم الآخر ، ومعرفة الملائكة ، وسائر عالم الغيب .

وأما بخصوص أمور الدنيا فيبقى للوحى الوصفان الأولان : أنه
المصدر الأول ، وأنه المصدر الصحيح .

وبعد الحديث عن العقل لنا — بمشيئة الله — تعقيب آخر ..
والله المستعان .

* * *

(٦٧) مصادر الشرعية الإسلامية للمؤلف .
(٦٨) المرجع السابق .

العقل .. مصدر المعرفة الثاني ، وبحدود

● مقدمة :

قدمنا كيف كرم الاسلام الانسان ، وكيف كرمه بعقله ولعقله .
وأيا كان موضوع العقل — فليس هو أكبر هينا ولا مبلغ
علمنا — فان الاسلام جعله مناط التكليف ، فالذى يفتقده ليس
بمكلف ، ثم هو أداة الاجتهاد وصولا الى حكم الله سبحانه مع سائر
الضوابط التي وضعها الشرع الحكيم .

والعقل — من وراء ذلك — مصدر للمعرفة .

لكن لمعرفته حدودا .

ذلك ما نبينه والله المستعان .

● مصادر المعرفة المختلفة :

لا نتصور معرفة — في هذه الحياة — الا باحدى طرق ثلاث :

١ — معرفة حسية :

ونقصد بها المعرفة عن طريق الحواس .. وأولها السمع

والبصر .

لكن الحواس وحدها لا تتم بها المعرفة ، الا أن تنتقل الصورة
الى العقل فيترجمها الترجمة الصحيحة، ومن ثم فان الطفل غير المميز
له سمع وبصر .

والحيوان كذلك له سمع وبصر .

لكن معرفتهما عن طريق حواسهما — بغير عقل — قد لا تكون

صحيحة ، وقد تختلط .

فالطفل غير المميز قد يخلط بين الثمرة والجمرة فيقبل على
الأخيرة دون الأولى ، وقد حدث مع موسى عليه السلام .
والحيوان قد يسمع الأصوات وتختلط عليه ، وقد يرى الشباك
ولا يميزها من الأرض التي يسير عليها . . . وهكذا .
ولذا وصف رب العالمين الكفار بهذا الوصف :

**« ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا
لا يعقلون » (٦٩) .**

**« ومنهم من ينظر اليك ، أفأنت تهدي العمى ولو كانوا
لا يبصرون » (٧٠) .**

وفي مكان آخر وصفهم بأن : **« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم
أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم
أضل » (٧١) .**

ذلك أن تلك الوسائل التي أعطاهم الله إياها قد افتقدت
الاتصال السليم فتعطلت وظيفتها .

فهم يسمعون ولا يعقلون . .

وهم ينظرون ولا يبصرون !

ولهم قلوب ولكنهم بها لا يفقهون !

٢ — معرفة عقلية أو قل بدهية :

كالمعرفة بأن النصف لا يزيد على الكل .

• (٧٠) يونس : ٤٣ .

• (٦٩) يونس : ٤٢ .

• (٧١) الاعراف : ١٧٩ .

- وأن الثلاثة تزيد عن الاثنين .
- وأن الشخص لا يوجد في مكانين في وقت واحد .
- وهكذا ... وهذه لا تحتاج الى حواس ، ولكنها تحتاج الى عقل .

٣ - معرفة خبرية :

- وهى لا تتأتى من العقل ولا من الحس .
- ولكنها تتأتى من الاخبار .
- ذلك أن هناك جانباً قد لا تدركه الحواس ، ولا يدركه العقل .
- كوقوع حادث في بلد بعيد ، يرويهِ صديق أو قريب .
- وكوقوع حادث في الماضي الذى لم يعيشه الانسان ، فإنه يحتاج كذلك الى من يرويهِ .

- وصدق هذه المعرفة متوقف على صدق الراوى .
- وفي هذا المجال استطاع المسلمون - وحدهم - أن يضعوا قواعد علم جليل هو علم الجرح والتعديل !
- بيد أن جانباً من هذا الاخبار لا سبيل له الا الوحي : كالمعرفة بالله ، وباليوم الآخر ، وبالعالم الغيب . . فكله قد يدرك العقل طرفاً منه لكن الادراك العام والصحيح لا يكون الا بالوحي - والله أعلم .

• نتائج المعرفة العقلية :

- تصل المعرفة بأنواعها الى أحد نتائج ثلاث :
- ١ - اكتشاف سنة كونية كقانون الجاذبية، أو كدوران الأرض

حول نفسها وحول الشمس — أو غير ذلك من السنن التي بثها الله في كونه ، وهذه تدخل في مرتبة الحقائق العلمية .

٢ — بلوغ حقيقة علمية : بالحس أو بالاستنتاج ، ككون الأرض كروية ، وكون القمر لا يصلح للحياة ، وكون الشمس غاز ملتهب ، وكون الاسماك تتنفس داخل الماء .
فهذه أيضا بلغت — بالمنهج التجريبي — مستوى الحقائق العلمية .

٣ — بلوغ نظرية أو فرض : قد يقف الأمر عند حد النظرية أو الفرض ، إذا لم يصل العالم برأيه الى مستوى الحقيقة العلمية .
والنظرية والفرض قابلان للتغيير والتصحيح (٧٢) .

* * *

(٧٢) والاسلام يندب المسلمين الى اعمال عقولهم ، والى البحث والتنقيب ، والى النظر في ملكوت السموات والأرض والآيات كثيرة في هذا المجال ، وهي تستحث المسلمين لغزو هذه الميادين جميعا . . وفقهاء المسلمين على أن كل فرع من العلوم ينبغي أن ينفر له فريق من المسلمين والا اثموا جميعا ، وهو ما يسمى في الفقه « بفروض الكفاية » وفروض الكفاية كما يرى عالم بحق — فروض جماعية ، وهي لا تقل عن الفروض العينية . . وهو نوع من توزيع المسؤولية بين جماعة المسلمين « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ومن هنا وجب على المسلمين أن يغزوا الفضاء ، وأن يفزوا ميادين التكنولوجيا التي سبقنا إليها اليوم الشرق والغرب مع أننا اساتذتهم في هذا المجال ، والا فاسألوا جامعات قرطبة وغرناطة ومالطة وغيرها من جامعات الاسلام التي تلقى منها الغرب خيوط العلم الأولى فسار بها ووقفنا نحن أو رجعنا القهقري — وانا لله وانا اليه راجعون .

درء تعارض الوحي والعقل

● حقائق الوحي لا تتعارض مع حقائق العقل: ونقصد بحقائق الوحي ما كان منه قطعيا ، فالقطعي من الوحي لا يتعارض مع ما وصل إليه العقل من حقائق ، ذلك أصل .. فان حدث :

● فان قطعي الوحي يتقدم قطعي العقل : وذلك لما تقدم :
« يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » (٧٢) .

وبالفحص والتحصيل سوف يظهر أن حقائق العقل ليست قطعية . فتحريم الخنزير قطعي ، وما كان يظنه البعض من « حقائق » حول الخنزير تبدلت وتبدت الآن وهكذا .

● وقطعي الوحي يتقدم ظني العقل : وذلك من باب أولى ، فلا يمكن لنظرية أو فرض لا يزالان في مرتبة الظن أن تتقدما الوحي ما دام قطعيا .

● وظني الوحي يتقدم ظني العقل : لأنه ان تساووا في الظن ، فالوحي أولى بالتقدم .

• (٧٢) الحجرات : ١ .

● وقطعى العقل يفسر على أساسه ظنى الوحى (٧٤) :
باعتبار أن ظنى الوحى يحتمل أكثر من تفسير ، فيرجح التفسير
الذى فى جانب الحقائق العلمية ، وبذلك ندر أن يتعارض الوحى
والعقل ، أو ما ظنه البعض كذلك — والله أعلم .

* * *

(٧٤) وفى هذا المعنى يقول الامام ابن تيمية : اذا قيل تعارض
دليلان سواء اكانا سمعيين أو عقليين ، أو أحدهما سمعيا والآخر
قطعيا ، فالواجب أن يقال : لا يخلو اما ان يكونا قطعيين أو يكونا
ظنيين ، واما ان يكون أحدهما قطعيا والآخر ظنيا ، فأما القطعيان
فلا يجوز تعارضهما سواء اكانا عقليين أو سمعيين ، أو أحدهما
عقليا والآخر سمعيا وهذا متفق عليه بين العقلاء ..
وان كان أحد الدليلين المتعارضين قطعيا دون الآخر ، فانه
يجب تقديمه بانفاق العقلاء سواء اكان هو السمعى أو العقلى ، فان
الظن لا يرفع اليقين ..

وأما ان كانا جميعا ظنيين فانه يصار الى ترجيح أحدهما، فأيهما
ترجح كان هو المقدم سواء اكان سمعيا أو عقليا .
(درء تعارض العقل والنقل — تحقيق د. محمد رشاد سالم
طبعة أولى ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩م) صفحة ٧٦) .

اتصال العقل بالوحي

● مقدمة :

هنا يتم التلقى ، أو هنا تتلقى الأرض الغيث ، فتهتز وتربو ،
وتثبت من كل زوج بهيج .

ويقع هنا المثل الذى ضربه رسول الله ﷺ « ان مثل ما بعثنى
الله من الهدى والعلم ، كمثل غيث اصاب ارضا فكانت منها طائفة
قبلت الماء ، فانبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها اجادب
امسكت الماء فسمى الناس وزرعوا (٧٥) ، واصاب منها طائفة شيعان
لا تمسك ماء ولا تثبت: كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه
ما ارسلت به ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله
الذى ارسلت به » (٧٦) .

وعن على رضى الله عنه « القلوب أوعية فخيرها أوعاها » (٧٧) .
وعن بعض السلف « القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها الى
الله تعالى أرقها وأصفاها » (٧٨) .

ولقد كان عن اتصال العقل بالوحي خير كثير :

(٧٥) وتتمثل فى هذه الطائفة قول الرسول ﷺ « رب حامل
فقه الى من هو أفقه منه » .
(٧٦) ابن تيمية — الفتاوى — ج ٦ ص ٣١٤ ، ٣١٥ .
(٧٧) المرجع السابق . (٧٨) نفس المرجع .

كان علم الفقه ، وكان علم أصول الفقه ، وكان علم مصطلح الحديث .

أما المنطق .. فقد نشأ خارج الوحي ، نقلا عن اليونان ، أبان ترجمة الفلسفة اليونانية في العهد العباسي ، وكان له قادحون ومادحون ، ونحن لذلك ذاكرون بمشيئة الله .
فهذه أربعة أمور تناولها على التوالي بشيء من الاجمال .

١ — علم الفقه :

على عهد رسول الله ﷺ تلقى المسلمون أحكام دينهم من رسول الله ﷺ : قرآنا يتلى ، فيفهونه ، ويعملون به .
وسنة يتدبها رسول الله ﷺ وحيا عن رب العالمين .. في قوله ، وفعله ، وقراره .

واجتهادا — عاما — من رسول الله ﷺ ، فيقره الوحي أو يصححه .

وجاء عهد الصحابة .. فطبّقوا الوحي — قرآنا وسنة — في أكثر حياتهم .

وجدت لهم قضايا ، فاجتهدوا فيها .. بما علموا من كتاب وسنة ، وبما تربي في نفوسهم من ملكة الاجتهاد لقربهم من الوحي ، وعلمهم بأسباب التنزيل ، وتعلمهم في مدرسة النبوة الكريمة .
وكان بدء « الفقه » دون تسمية ودون تدوين .

وجاء عهد التابعين ، وتابى التابعين .. فكثرت الاجتهاد مع كثرة القضايا ! وتبعهم الأئمة المجتهدون ، وشهد القرن الثاني

والثالث بدء تدوين السنة ، وبدء تدوين الفقه وكان أول ما دون موطأ الامام مالك ، بناء على طلب الخليفة المنصور ، وكان كتاب حديث وفقه ، ثم دون الامام أبو يوسف صاحب أبي حنيفة عدة كتب ، ودون الامام محمد بن الحسن كتب ظاهر الرواية الستة — جمعها الحاكم الشهير في الكافي وشرحه المرخسى في المبسوط ، وأملى الامام الشافعى كتابه الأم — وهو عماد المذهب الشافعى .
وتتابع التدوين ، والاجتهاد ، والكتابة .

وكان علم الفقه على هذا النحو لقاح الفكر بالوحى ، أو بعبارة أخرى استنارة العقل بنور الوحى ، فكان من أخصب العلوم الاسلامية ، التى تقدمت على ما قدمته أوروبا بعد ذلك فى أوج تقدمها الفكرى من شروح قانونية أو نظريات فقهية !

٢ — علم أصول الفقه :

لئن بدأ « الفقه » عملاً مع عهد الصحابة فى القرن الأول الهجرى، فإن علم أصول الفقه لم يبدأ الا فى القرن الثانى الهجرى — عملاً — كذلك ، مع اتساع اجتهادات الفقهاء ، فقد كانوا خلال اجتهاداتهم يستدلون ، ويضعون الضوابط التى مثلت بعد ذلك قواعد الأصول .

وكان أول من جمع المتفرقات فى سفر على حدة الامام أبو يوسف صاحب أبى حنيفة — كما ذكر ابن النديم — ولكن لم يصل الينا ما كتبه ، وكان أول من دون مجموعة مستقلة مرتبة مؤيد بالأدلة هو الامام محمد بن ادريس الشافعى — رحمه الله — فى « الرسالة » ، ولذا اشتهر الشافعى أنه واضع علم الأصول .

وظهرت في الكتابة في الأصول بعد ذلك عدة طرق .
طريقة علماء الكلام الذين حققوا قواعد هذا العلم تحقيقاً
منطقياً نظرياً (٧٩) .

أما طريقة علماء الحنفية فقد بنوا الأصول على الفروع
أي استنتجوا أصولهم من حلول أئمتهم (٨٠) .

وقد جمع آخرون بين الطريقتين ، ومنها كتاب بديع النظام
الذي جمع بين البزدوي والأحكام للبغدادي (مظفر الدين) المتوفى
عام ٦٩٤ هـ ، وكتاب التوضيح لصدر الشريعة ، والتحرير للكمال
ابن الهمام ، وجمع الجوامع لابن السبكي .

وعلم أصول الفقه من أجل العلوم التي تضبط الأحكام
الفقهية ، وتساعد المجتهد على الوصول إلى صحيح الحكم الشرعي
فيما يعرض له من قضاء أو فتيا أو بحث علمي .

ولا يكاد يوجد مثيل لهذا العلم في الغرب إلا بضع نظريات
وضعوها لتفسير وجود القانون وحاجة الناس إليه وحياته وموته ،
وهي دون ضوابط علم الأصول بكثير .

(٧٩) أكثر الأصوليين من الشافعية والمالكية على هذه الطريقة ،
ومن أشهر الكتب المستنصفي للغزالي (٥٠٠ هـ) ، الأحكام للآمدى
(٦٣١ هـ) المنهاج للبيضاوي (٦٨٥ هـ) وشرحه للاسنوي .
(٨٠) منها أصول الديوبسي (٤٣٠هـ) ، البزدوي (٤٣٠هـ) ،
النسفي (٧٩٠ هـ) وأحسن شروحه مشكاة الانوار .

وفي الدراسات الحقوقية في بلاد الاسلام يلجأون الى علم أصول الفقه لحسن تفسير النصوص القانونية ووضع الضوابط لها ، مما يشعر بالحاجة الى هذا العلم الجليل حتى في ميدان القانون الوضعى .

والعلم بهذه المثابة ثمرة استنارة العقل بالوحي كما كان الفقه كذلك !

٣ - علم مصطلح الحديث :

حفظ الله لهذه الأمة كتابها ، وحفظ لها كذلك سنة رسوله ، باعتبارها شطرا الوحي ، ويتحقق أمر الله القدرى « **أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون** » (٨١) وباعتبار ما في هذا النص من أمر شرعى كذلك ليس بطريق العبارة ولكن بطريق الاشارة .

أما حفظ الكتاب فقد تواتر في الصدور ، وفي السطور . وأما حفظ السنة أو الحديث (٨٢) فقد كان بما قبض الله له من صحابة رسول الله ﷺ - وكلهم عدول - يحفظون عنه القول ، والفعل ، والاقرار ، والصفة . . اكثرهم يحفظه في الصدور (٨٢) ،

(٨١) الحجر : ٩ .

(٨٢) السنة والحديث وان اختلفا في المعنى اللغوى لكل : فالسنة هى الطريقة ، والحديث هو الجديد ، لكنهما بمعنى واحد اصطلاحا .

(٨٣) في هذا المعنى الشيخ الجليل محمد نجيب المطيعى رحمه الله ، وقد كان أحد علماء السنة الأفاضل رحمه الله ، وفيها سمعت منه أنه كان يحفظ ثمانية آلاف حديث باسنادها فضلا عن فهمه لمعانيها والتزامه بأحكامها وقد توفى رحمه الله عام ١٤٠٦ هـ . عوضنا الله فيه خيرا .

وبعضهم يحفظه في السطور، تخرجاً منهم أن يختلط القرآن بالحديث .
 حتى كان عمر بن عبد العزيز الذي أسماه الشافعي بخامس
 الخلفاء الراشدين ، فأمر بتدوين السنة ، ثم تلا ذلك أول تدوين
 لها من إمام أهل السنة الإمام مالك رضي الله عنه (٨٤) وتلا ذلك تدوين
 الإمام البخاري بشروطه ، والإمام مسلم بشروطه ، وتلا هذين بقية
 أصحاب الكتب الستة محاولين البحث عن الصحيح ، ومنقنين سنة
 رسول الله ﷺ من كل وضع أو تحريف .

وهكذا عرف علم مصطلح الحديث ، وما تفرع عنه من علم
 الرجال ، أو علم الجرح والتعديل ، وفي العلمين بلغ علماء المسلمين
 شأواً لم يبلغه أحد قبلهم ولا بعدهم . . بل إن هذا العلم الجليل
 يبقى بغير نظير أو مقابل له في علوم الغرب على تقدم الكثير منها ،
 وفيها يظهر الجهد البشري ، مسدداً بنور الوحي ، محوطاً بعناية
 الرحمن « **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** » (٨٥) . .

٤ — علم المنطق :

المنطق عرف قبل الميلاد عند اليونان ، وأستاذه أرسطو ،
 وهو قواعد « عقلية » تفيد في مجال المناظرة أو الجدل . بيد أن
 ظروف نقله إلى العربية إبان العهد العباسي ، أساءت إليه كثيراً .
 وقد اقتدرن في الأذهان « بالسفسطة » ، و « الجدل
 البيزنطي » فكانت الإساءة أكثر .

(٨٤) المرجع السابق — صفحات ٧ ، ٤ ، ١٩ .

(٨٥) النور : ٤٠ .

- ومن علماء المسلمين من دافع عنه (٨٦) .
ومنهم من هاجمه هجوما شديدا (٨٧) .

(٨٦) من هؤلاء الامام أبو حامد الفزالي الذي قال « انى ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة ، وعلمت يقينا انه لا يتف على نسد نوع من العلوم من لا يتف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى اعلمهم فى أصل العلم أو يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة . . . » (المنتقد من الضلال) ثم يقول فى مقدمة المستصفى « ان من شروط العالم المجتهد أن يحيط بعلم النظر ، ويحسن ايراد البرهان وأجراء القياس » ، ويقول فى كتاب مقاصد الفلاسفة « أما المنطقيات فأكثرها على منهج الصواب ، والخطأ فيها نادر، وانما يخالفون أهل الحق فيها بالاصطلاحات والايرادات دون المعانى والمقاصد » — وراجع كذلك الاستاذ العقاد — التفكير فريضة اسلامية ص ٢٨ — ٤٥ .

(٨٧) من هؤلاء الامام ابن تيمية ، وان عده الاستاذ العقاد ممن يسلمون بالمنطق ، لكن مراجعة ما كتبه الامام ابن تيمية رحمه الله (فى جزء كامل) تعطى عكس ما قاله العقاد ، فضلا عن تصريحه الصريح بذلك، ونكتنى هنا بقوله « غلط شرعا وعقلا من قال انه فرض كفاية . . هذا العلم بعضه حق وبعضه باطل ، الحق الذى فيه لا يحتاج اليه ، أكثر الحق الذى فيه تستقل بمعرفته الفطر » (ص ٢٧٠ — ج ٩ مجموعة الفتاوى) وقد تضمن فى هذا الجزء الذى تربو صفحاته على الثلاثمائة الحديث حول : ما تقولون فى المنطق ؟ وهل من قال انه فرض كفاية مصيب أم مخطئ ؟ ، (نقض المنطق) مختصر نصيحة أهل الايمان فى الرد على منطق اليونان ، فصل فى ضبط كليات المنطق والخلل فيه ثم انتهى الى النتيجة التى اشرنا اليها .

ومنهم من وقف منه موقفا وسطا فأقر صحيحه ، وانكر
غاسده (٨٨) .

ونحن نرى في هذا المجال — وهو ليس بكاف لدراسته دراسة
مستفيضة — أن عيب المنطق ليس في انه وافد علينا ، فكم من علوم
وفدت الينا ! فضلا عن أنه ان كان فيه جانب من الحكمة ، فالحكمة
ضالة المؤمن ائى وجدها فهو احق الناس بها .
ولكن عيبه هو في عدم الحاجة اليه .

فالصحيح فيه بدهيات لا يلزم لها علم ولا قواعد .
وغير الصحيح فيه لا ينبغى ان نضيع وقتنا فيه !

وفي محاولة لنا للاستفناء عن المنطق ، حاولنا وضع قواعد
مستمدة من القرآن ، واخرى مستمدة من اصول الفقه للاستفادة
منهما في مادة الحوار والمناظرة بحثا عن الحق وبلوغا اليه ان
شاء الله (٨٩) .

(٨٨) فضيلة الشيخ محمود فايد دروسه في المنطق في القسم
الثانى بالأزهر ، ومن أشار اليهم .
(٨٩) راجع ما كتبنا في مادة أدب الحوار والمناظرة —
دراسات عليا — قسم الاستشراق (تحت الطبع بمشيئة الله) .